الحلقة (٤)

تحدثت في الحلقة السابقة عن شبهة التعارض بين الدين والعلم! وبينت أن هذه الشبهة مردها إلى واقع تاريخي، فهي في حقيقتها ليست تناقضاً بين العلم والدين الحق، إنما هي تناقض بين واقع معين وفهم معين وتطبيق معين للدين، وبين علم يتطور ويكتشف هذه الأخطاء المتراكمة لدى أولئك الناس في الدين أو في الواقع، ويكتشف تصادم نتائج العلم مع نصوص دين يقال: أنها نصوص حق مع أن ذلك الدين دخل فيه التحريف.

فإذن السبب الحقيقي لهذا الذي بدا لأولئك الناس تعارضا بين العلم والدين هو أولاً كما قلت: النص المحرف، الذي دخلته آراء البشر ولم يبقَ كما هو غضاً طرياً، نحن هنا نتحدث عن مشكلة التعارض بين العلم والدين في أوروبا قبل أن تنتقل آثارها إلى العالم الإسلامي، فإذن كان النص المحرف سبباً من الأسباب، ثم الجانب الآخر هو: الفهم المعوج وغير المستقيم، المسألة الثالثة التطبيق الخاطئ.

ثلاثة عناصر اجتمعت، وظهر من خلال هذه العناصر أن ما أفضى إليه العلم الحديث آنذاك هو بخلاف ما يقوله أولئك الناس من ناحية الدين ومن ناحية تطبيقه، فلذلك حدث هذا التعارض، بل التناقض، بل الصراع الذي أدى إلى إحراق بعض العلماء في المجال الفلكي وفي المجال الطبيعي ونحوه وإيذائهم ومطاردتهم وقتلهم، إلى غير ذلك من المسائل.

فإذن يتجلى لنا أن هذا التعارض هو تعارض بين واقع معين ودين محرف وبين علم لم تثبت كل معطياته إنما هو في تطور دائم، لذلك لا يمكن الجزم بنتائجه التي أدت إلى التعارض جزما مطلقا.

هذا الواقع أطل على العالم الإسلامي في حالة ضعف وفي حالة انحطاط، وكان هناك شيوعاً للخرافة والأسطورة ولا سيما بين العوام في العالم الإسلامي.

الأمر الثاني: جمود الفكر آنذاك.

الأمر الثالث: الإغراق في التخصص، فلم يكن الجانب الشمولي في الفهم والفكر حاضرا كما كان في عصور الإسلام الأولى، هذه الأمور أدت إلى نوع من التعارض الظاهر بين بعض ما يقول به العلم وبين ما يمارسه الناس، سواء من فهم أو تطبيق خاطئ للدين في العالم الإسلامي، مما أوجب إرباكا لدى بعض من درس من شباب العالم الإسلامي في العالم الغربي.

إذن لم يكن منشأ الشبهة هو التصادم بين الدين الحق وبين العلم، بل هو: تصادم واقع تاريخي معين مع نتائج علم تتطور وتظهر شيئا فشيئا وتزيل الغشاوة شيئا فشيئا، وإلا فالعلم سيفضي إلى الشهادة بأن القرآن هو الحق، وذلك قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} فإذن نتائج العلم تفضي شيئاً فشيئاً إلى إثبات وحدانية الله تعالى، وإلى إثبات أن ما جاء به القرآن هو

الحق، سواء في مجال الأنفس أو في مجال الأكوان، فكل هذه الكشوفات تؤدي إلى هذا السبيل، وقد ظهرت بوادرها في أشياء كثيرة وفي اكتشاف أمور عديدة كان لها إشارات في القرآن والسنة المطهرة أذهلت الكثير من العلماء المتخصصين عندما اكتشفوا هذا التطابق بين الحقائق العلمية وبين ما في القرآن الكريم.

والحق أنه ليس بمستغرب لأن القرآن وحي الله وكلامه المحيط علمه بكل شيء، والذي قال الله عنه: {ما فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيء} وقال تعالى: {تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} والخلق فعله وهو العليم {وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً} وما يزال العلم يكشف حتى يبين ويشهد أن القرآن هو الحق، وقد بين بعض العلماء من الغرب الذين كتبوا في هذا الشأن ومنهم الطبيب موريس موكاي الذي كتب عن الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، وثبت له من خلال دراسته أن القرآن يتطابق مع نتائج العلم في حين أن التوراة والإنجيل فيها اختلاف كثير، وذلك لما دخل فيهما من تحريف، وإلا فأصلهما من عند الله كما قال الله تعالى، لكن الأمر أنها دخلها التحريف.

أثر العلم والعلماء المسلمين في الحضارة الإنسانية:

تعددت المجتمعات التي أسهمت في رقي الحضارة الإنسانية وتطورها، فكل مجتمع ولا شك يسهم إسهاما معينا يتوافق مع مزاج هذه الحضارة ومع مبادئها ومع ما تؤمن به، لذلك نجد اختلاف الحضارات ما بين حضارات تهتم بالجانب الدنيوي من حيث إثارة الأرض وتصنيعها والاستفادة منها ماديا، دون أن ترفع رأسا بالجانب الغيبي، ونجد حضارات تؤسس على الجانب الغيبي وتهتم به، ويكون هو الأساس والأصل والمنطلق، فالحضارة الإسلامية حضارة قامت على الدين الإسلامي.

ما الذي جعل المسلمين يسهمون وبقوة في الحضارة الإنسانية؟

أولاً: القرآن الكريم كتاب يدعو للعلم وللتفكر والتدبر والنظر، وإلى الأحكام المتجردة العادلة التي لا تحابي في نظرها وفي تحليلها وفي استقرائها للأمور، لذلك يقول الله تعالى: {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ}، وقوله تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ}، وقوله تعالى {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ} فأمر سبحانه وتعالى بهذا التجرد وبهذه الدقة في النظر والتحليل والاستقراء والتصور، إلخ، هذه الأوامر الإلهية التي أمرت بهذا الجانب بالإضافة إلى

ثانياً: التنبيهات والتأكيدات المتعددة في القرآن والسنة للنظر والتدبر والسير في الأرض والاعتبار والتفكير والمسؤولية عن السمع والبصر والفؤاد، إلخ من الأمور.

هذا الأمران كانا من الأمور التي أسهمت في إيجاد بيئة علمية تدفع نحو العلم واستثارة الأرض وتحريك الفكر والنظر في المجتمعات وفي السير ونحوها، فكان من نتائجها أن وُجدت حركة علمية قوية في العالم الإسلامي، ومناخا للتفكير العلمي أنتج ما أنتج من الأمور الكثيرة.

الجانب الآخر الذي أثّر في إيجاد نتائج دفعت بالحضارة الإنسانية شوطا كبيرا
ثالثاً: هو الانطلاق من الإسلام وهو خطاب للإنسانية، فالإسلام خطاب للبشر كلهم قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}، وقوله تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ} هذا الخطاب الذي للناس أجمع راعى هذه البشرية في اجتماعاتها وافتراقها وفي جبلتها، وفيما تحتاجه في ضرورياتها، وفيما تحتاجه في سلمها وفي حربها وفي حياتها وفي كل أمورها، فكان الانطلاق من هذه المبادئ الشاملة التي تستوعب الحياة الإنسانية كلها وتوجهها الوجهة التي فيها السعادة؛ من أعظم الأسباب في إثراء الحضارة الإنسانية بالأفكار النافعة، نتيجة دراسة هذا الدين واكتشاف نصوصه وتوجيهاته العظيمة فيما يتعلق بالتعامل الإنساني في المجتمعات المسلمة بخاصة، وفي المجتمع الإنساني عامة، فكان له أثر عظيم في توجيه أفكار العلماء أو نتائج بحوثهم نحو ما ينفع الإنسانية.
الأمر الآخر: التأكيد على القيم الإسلامية، فالقيم الإسلامية قيم تعنى بالإنسان، تحافظ ليس فقط على الإنسان بل البيئة كاملة وبكل ما فيها، وتُشعر الإنسان بأنه عابد وأن الكون أيضا عابد، وأن العلاقة بين الإنسان وبين الكون علاقة محبة ومودة ومواءمة، وليس علاقة صراع وعنف ونحو ذلك، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يقول عن أُحد (جبل يحبنا ونحبه)، هنا مبادلة للحب بين الجبل وبين الإنسان، كذلك الآيات الأخرى التي تبين هذا التواؤُم بين الإنسان المؤمن وبين الكون، بحيث لا تغدو المسألة صراعا وتنافسا يؤدي إلى العنف وزيادته، بل إلى التكامل وإلى الرحمة وإلى الإنتاج الفاعل المفيد وإلى تقليل الفاسد والمفسد إلى حد أكبر، فهذه القيم التي تعمل بهذا الشكل أدت إلى إثراء الحضارة الإنسانية عن طريق العلماء بهذه القيم، وتأكيدها تأكيدا كبيرا، سواء كانت هذه القيم من الناحية المنهجية أم من الناحية المعرفية أم من الناحية التطبيقية.
ومن المعلوم أن هذه التوجيهات في مجال استقراء الكون والنظر فيه كان لها أثرا عظيما في اهتمام المسلمين بالمنهج التجريبي، ومعلوم أنه قبل الحضارة الإسلامية كان هناك نوع اهتمام بالتطبيقات عند اليونان، لكنه منهج يعتبرونه أضعف من المنطق الذي ينطلقون فيه من الأعلى إلى الأسفل أو من القواعد الكلية إلى الجزئيات، في حين أن القواعد الكلية لم تأتِ إلا نتيجة استقراء الجزئيات، ومن هنا اهتم العلماء المسلمين بالاستقراء اهتماما كبيرا وطبقوه في عدة مجالات، سواء في المجال الشرعي لاستنباط علل الأحكام أو لمعرفة مقاصد التشريع، وطبقوه في المجال الإنساني أو التاريخي وسبقوا في ذلك، كان ابن خلدون سابقا للغرب في دراسة التاريخ دراسة سننية مما أذهل الغربيون كيف اكتشف هذا العبقري! وما أسباب ظهوره، في حين أن ظهوره كان محتملا وممكنا في إطار التوجهات الإسلامية والتوجهات القرآنية للنظر والاستقراء والتدبر ومعرفة السنن، فلم يكن غريبا أن يظهر مثل هذا الشخص في إطار الحضارة الإسلامية، فكان له أثر في إثراء الحضارة الإنسانية من هذا الجانب.
طبقوه أيضا في المجال الذي يسمح بالتجربة، وأنتجوا أشياء كثيرة سواء في مجال الطب ومجالات أخرى

كالصيدلة ونحوها، وقد كان الغرب في إبان نهضتهم يكاد يعتمد على ما وُجد في الحضارة الإسلامية، فانطلق من تلك المرحلة وسار وتطور ولم يقف عند تلك المرحلة، ولكنها كانت هي البداية والمنطلق له، فاعتمد على هذه النتائج واستفاد من المنهج التجريبي فائدة عظيمة، فكان له أثر في تطوير هذه الحضارة الغربية التي نعيش أثارها ونلمسها بقوة، هذا من ثمرات علماء المسلمين في إثراء الحضارة الإنسانية.

مجالات التأثير ليست فقط في الطب والصيدلة بل تعدتها إلى أمور أخرى كالعمارة وكالفنون الحربية التي طورها المسلمون تطويرا كبيرا لحاجتهم إليها، وكذلك في مجال الصناعات الأخرى، وظهر أيضا النتائج في المجال التشريعي، ومن الثروة التشريعية أو الفقهية استفاد الغربيون كثيرا وأدخلوا الكثير في قوانينهم نتيجة الوعي والمعرفة بالفقه الإسلامي.

فمجالات التأثير في الحضارة الإسلامية متعددة، منها ما يتعلق بالقيم، ومنها ما يتعلق في مجال التشريع، ومنها في مجال الفكر ومناهج النظر، ومنها في الصناعات، ومنها في مجال التكافل والمؤسسات الخيرية، فالمؤسسات الوقفية كانت في العالم الإسلامي لها دور كبير في نهضة العالم الإسلامي وبناء مجتمعه، وكان المسلمون قد توسعوا فيها توسعا كبيرا إلى درجة أن يكون هناك أوقافا على الكلاب الضالة، وأوقافا للإنارة....إلخ من الأوقاف المتعددة التي تغطي أوجه الحضارة آنذاك.

فإذن هذا الاهتمام بالجانب الخيري والعناية به وتوظيف الأوقاف توظيفاً اجتماعياً فعالاً كان أيضا من ثمرات الحضارة الإسلامية التي استفاد منها الغربيون كثيراً وطوروها وساروا بها شوطا كبيراً، فالآن العجيب مثلاً من الجامعات الغربية وكثيرا من المؤسسات تقوم على هذه الأوقاف.

هذه لمحة عن تأثير العلم والعلماء المسلمين في الحضارة الإنسانية، وقد كُتب في ذلك كثيراً سواء ما كتبه المسلمون أو ما كتبه غيرهم، ومما كُتب من الكتب التي تبين هذا الأثر العظيم كتاب لـ زغريد هونكة: [**شمس العرب تسطع على الغرب**]، هذا الكتاب المؤلفة أوضحت فيه جوانب كبيرة من أثر العلم والعلماء على الحضارة الإنسانية، وكثير من الغربيين المنصفين أشاروا إلى ذلك وكتبوا فيه، وفي مجالات الحضارة المتعددة، بعضهم كان مخصصا في مجال من المجالات كمجال الفكر فكتب فيه، وبعضهم في مجال المناهج فكتب فيه، وغيرها من المجالات المتعددة، فالبعض كتب في مجال وبعضهم كتب في مجالات متعددة، بهذا نكون انتهينا من القسم الأول قسم الإسلام والعلم.

المكتبة: تعريفاً، ونشأة وأهدافاً وأشهر المكتبات ضمن التراث الإسلامي.

نبدأ في تعريف المكتبة:

هي مؤسسة ثقافية معرفية تنشأ في المجتمع وتحوي أوعية معرفية متنوعة تلبي بها حاجة المجتمع أو فئة من فئاته في المجال المعرفي والثقافي.

فهي إذن تنشأ في المجتمع بفعل فاعل، إما أن تكون بفعل جهة رسمية، أو أن تكون بفعل فئة أو شريحة من المجتمع اهتمت بإنشاء هذه المؤسسة التي هي المكتبة.

المكتبات كما سيأتي متنوعة ومتعددة ومستوياتها مختلفة، وكل نمط وله وضعه وله منشأه ونحو ذلك، لكن نحن نتكلم عنها فنقول أنها مؤسسة ثقافية معرفية تنشأ في المجتمع: سواء أنشأها شخص أو أنشأتها الدولة أو أي شخص، فهي تنشأ في المجتمع.

وتحوي أوعية معرفية متنوعة: قلنا أوعية معرفية حتى لا نقول كتب، في السابق ربما كانت المكتبات ليس فيها إلا الكتب، لكن الآن المكتبات أصبح وضعها آخر، فأوعية المعرفة متنوعة، لم تعد الكتب وحدها، قد تكون كتاب، قد تكون صحيفة، قد تكون شريطا سمعيا، قد تكون قرصا ممغنطا أو مدمجا، قد تكون مفتوحة على الإنترنت شبكات، قد تكون تحوي أوعية معرفية متنوعة ومتعددة بتعدد التطور العلمي في هذا الجانب، فإذن الأوعية المعرفية لا نستطيع حصرها، لذلك لم نقل كتبا وإنما قلنا أوعية معرفية متنوعة بحسب ما يستجد من هذه الأوعية المعرفية التي لا يتوقف الإنتاج فيها، فما نفتأ نلاحظ تجددا دائما في مجال أوعية المعرفة.

الأمر الآخر أيضاً: لا يقتصر الوعاء المعرفي على الكتاب وعلى القرص المدمج وعلى ما ينقل المعرفة، بل قد يكون وهذا ما تفعله بعض المكتبات يكون فيها متحفا يحوي إما وثائق أو ما هو أكبر من الوثائق، كبعض التحف التي فيها توثيق لجانب معرفي، كما تلاحظ في بعض المكتبات، مثل مكتبة الإسكندرية التي هي قامت على أنقاض مكتبة الإسكندرية القديمة ومن ضمن ما تحويه المتحف، هذا المتحف فيه لوحات أثرية، فيه لوحات تبين نمط الملابس مثلاً، تبين النقود، تبين الأسلحة، وتبين تطور هذه الأشياء في الحضارات المختلفة، بل إن فيها ما يتعلق بالتحنيط عند الفراعنة ونحو ذلك.

فإذن المكتبات تختلف، قد تكون متوسعة وتحوي شيئاً كبيراً إذا كانت مكتبة عامة أو وطنية أو نحوها، وقد تكون المكتبة صغيرة وقد تكون بحسب وضعها، فنحن طرحنا تعريفا عاما يشمل أو يستوعب المكتبة مهما كان وضعها صغيراً أو كبيراً أو متوسطاً أو نحو ذلك، فقلنا إنها إذن مؤسسة ثقافية معرفية تجمع بين الثقافة والمعرفة، وتنشأ في المجتمع، وتحوي أوعية معرفية متنوعة مهما كانت هذه الأوعية لتلبية حاجة المجتمع أو فئة من فئاته في المجال المعرفي والثقافي.

هذا تعريف المكتبة بشكل عام، يندرج كما قلت في هذا التعريف ما كان منها متوسعا وما كان منها متوسطاً، وما كان منها صغيراً.

أما عن نشأة المكتبة في الإسلام:

أولا: المجتمعات الإنسانية ما من مجتمع من المجتمعات التي أصبح لها نصيب من الحضارة إلا وجدنا أن المكتبة جزء لا يتجزأ من حياتها، ولو نظرنا في بعض المجتمعات القديمة لوجدنا أن المكتبة قد

كان لها نصيب في حياة ذلك المجتمع، وإن كانت بشكل محدود ويسير.

أقدم المكتبات التي اكتشف أنها فيها ألواحا طينية محفوظة في مكان معين، وهذه الألواح الطينية عليها كتابات سواء كتاب عقود أو وثائق أو معارف أو نحو ذلك.

فكانت أشبه إذن ببيت الكتب أو المكتبة آنذاك عند أولئك الأقوام، ومازالت المجتمعات كما قلت التي لها نصيب من الحضارة يكون عندها المكتبة، وكلما اتسع نطاقها الحضاري كلما ظهر الاهتمام لديها بالمكتبة وإنشائها، لما لها من فوائد في تطوير الحياة وتلبية ما يستجد من إشكالات ونوازل تنزل بالناس يحتاجون فيها إلى اللجوء إلى المكتبة، لإدراك أو محاولة حل المشكلة بالاستفادة مما هو مطروح ومكتوب، سواء كان قديما أو حديثا مما ترصده المكتبات، وقد اتضحت في هذا العصر الحديث ما يسمى بسلطة المعرفة وأهميتها في الحياة الاجتماعية، بل الحياة الإنسانية، وأصبح هناك عناية بالجانب المعرفي وبتسويق المعرفة وباقتصاد المعرفة ونحو ذلك مما نسمعه الآن !! لأن المعرفة أصبح لها الأولوية أو قفزت في المقدمة باعتبارها الهادية للمجتمع أو للنشاط البشري بكل صنوفه، فنشاط ديني لا بد من علم لكي يكون النشاط صحيحا، نشاط دنيوي لا بد من علم لكي يكون النشاط صحيحا ومثمرا، نشاط اجتماعي لابد أن يكون العلم يهديه لكي يكون صحيحا، وهكذا أي نشاط يمارسه الإنسان لابد أن يسبقه العلم حتى تكون ثمراته فاعلة ومنتجة، فهذه هي مسألة الاهتمام بالعلم أو المعرفة ودروها الكبير في قيادة المجتمع الإنساني، من أجل ذلك كانت نشأة المكتبات كما قلت لتحقيق هذا الأمر وهو هداية المجتمع، وتسديد نشاط الإنسان في كل ما يأتيه ويذره، سواء كان فردا أو مجموعا، لا بد أن يكون نشاطه مؤثَّرا وموجَّها بالعلم والمعرفة.